تذكروا ما اعتقدوا أنه عادي:

لماذا فشل 300 من طلاب الجامعة في نسيان طفولتهم؟

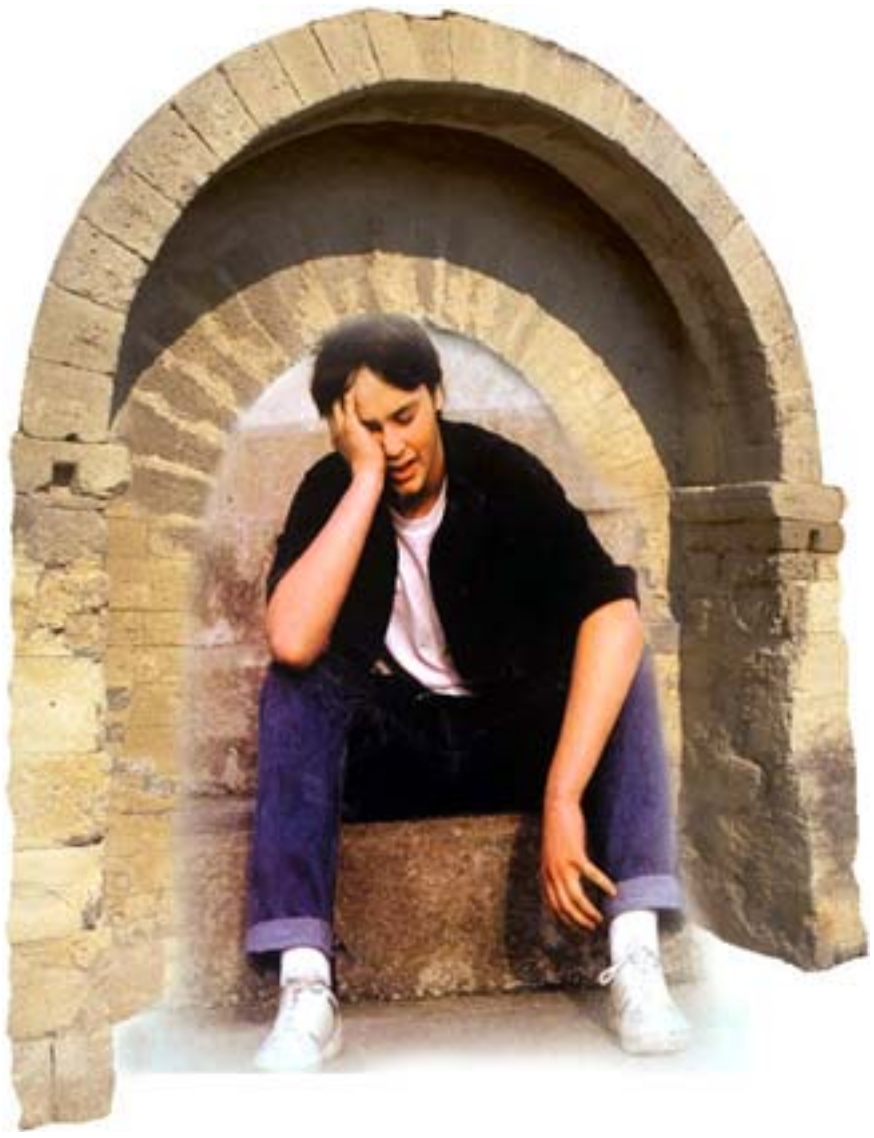

دراسة حديثة: الإساءة العاطفية أكثر ما يعلق بالذاكرة..

استشاري طب المراهقين: نحتاج إلى ثقتهم كي نعالجهم

،، حين فاجأه السؤال شفوياً هز رأسه بالنفي ولكن الفريق البحثي لم يقتنع ومنح «محمد» بعض الوقت كي يفكر ويعيد النظر في إجابته.. في اليوم التالي كانت المفاجآت من نصيب الباحثين فقد امتلأت الاستمارة التي سلمت إلى محمد ذي الأربعة وعشرين عاماً لخص فيها كل أنواع الإساءات التي تعرض إليها أثناء طفولته - لقد تذكر كل شيء تقريباً وبالتفصيل .. وفقاً لأحد الباحثين الذين ينتمون إلى طب المجتمع في كلية الطب جامعة صنعاء - تفسيراً للحالة يقول الدكتور/عبدالسلام عشيش: احتاج إلى الوقت الكافي كي يتذكر، وحتى يتذكر يحتاج إلى الثقة بمن يدلي إليهم بالمعلومات التي يعدها خصوصية وتتعلق بواحدة من أهم مراحل العمر..

استطلاع/صقر الصنيدي

لم يكن محمد وحده محتفظاً بما يشبه الذاكرة المؤلمة للطفولة هناك ٢٢٥ طالباً وطالبة في أقسام مختلفة من الجامعة من مجموع ٣٠٠ أفادوا أنهم غير قادرين على نسيان ما حدث لهم من إساءات أثناء الطفولة، والمؤسف أنها كانت من أقربائهم ولم تكن من أشخاص آخرين لا يمتون إليهم بصلة القرابة وتنوعت هذه الإســـاءات بتنوع الظروف المحيطة بكل واحد منهم..

تقول أسماء الظاهري وهي ضمن الفريق الذي عمل لعامين تقريباً لإنجاز دراسة «الإساءة للأطفال»: بصعوبة استخرجنا المعلومات منهم وتعهدنا لهم بالسرية بحيث لم نطلب منهم ذكر الأسماء وأن يكون تحليل البيانات للأغراض العلمية فقط، وهو ما جعلهم يجيبون على الأسئلة البحثية المعدة مسبقاً والمعتمدة على استفزاز الذاكرة بحيث تخرج، ما عندها وما تحتفظ به لسنوات ماضية..

يعتقد بعض الآباء أو الأمهات أن مجرد إعطاء الطفل قطعة حلوى أو كلمات لطيفة تجعله ينسى ما حدث له من سوء معاملة أو تهديد أو كلمات قاسية، علم النفس يؤكد إن لكل إساءة وقعاً خاصاً في النفس وأن الطفل لا يمكنه النسيان إلا إذا حصل على دعم معنوي كاف ليتجاوز الإساءات..

ووفقاً للدكتور عبدالسلام عشيش استشاري الأمراض النفسية وطب نفس الأطفال والمراهقين منذ ما يزيد عن عشرين عاماً فإن الذاكرة تحتفظ بكل إساءة حسب نوعها ووقعها على الطفل وقد ترافقه طوال حياته وتصبح عائقاً أمام انطلاقه وإبداعه في كل أوجه الحياة..

وبالعودة إلى اليونيسف المنظمة المختصة بتوفير الحماية للأطفال فإن الإساءة هي إهمال مادي أو نفسي أو سوء معاملة للطفل أو إصابته من قبل شخص مسئول عنه وعن سلامته ويشمل أية أفعال أو تصرفات يتحمل أن تؤذي أو تهدد صحة الطفل وسلامته بما في ذلك الإساءة الجنسية..

يقول أحد الآباء أنه لا يتذكر عدد المرات التي عاقب فيها ابنه وأنها كانت الطريقة الوحيدة التي يراها لتصحيح تصرفاته بين الحين والآخر..

ومهما تكن الوسائل التي استخدمها الأب المذكور فإن أكثر ما يلتصق بالذاكرة وما لم يقدر نصف المستهدفين على نسياته فقد احتلت الإساءة العاطفية المرتبة الأولى بنسبة ٤٨٪ وحين طلب إليهم تفصيل الإساءة قالوا إن أكثر ما علق في ذاكرتهم مناداتهم بالأسماء والألقاب التي يكرهونها.

يقول الدكتور/أحمد الحداد، المشرف الرئيسي على الدراسة إلى جانب الدكتور/سيف الدين الميري والدكتورة نفيسة الجائفي أنه يفترض بأولياء الأمور تجنب ما يسيء إلى أطفالهم وأن يتوقفوا عن مناداتهم بما يكرهون من الأسماء أو الألقاب وهو ما يجب أن يراعيه الآخرون خارج الأسرة وعليهم تجنب المعايرة بالعيوب والتقصير فهذه من الأمور التي لا تنسى والتي توصلت إليه الدراسة الجيدة التي نفذها عشرة باحثين من طب المجتمع والذين بدأوا بها حياتهم المهنية..

يقول عماد عبدالمجيد، أحد الباحثين، إن الذين تذكروا كانوا من مستويات عمرية مختلفة وإنهم من الجنسين ذكوراً وإناثاً ١٦٣ من الذكور و١٣٧ من الإناث وجميعهم طلاب في جامعة صنعاء تخصصات مختلفة ورغم مرور عدة سنوات تفصلهم عن تاريخ حدوث الإساءة إليهم حتى الآن وربما تبقى معهم في المستقبل..

كان المقرر أن يذهبوا لدراسة الإساءات عند الأطفال وهم ما زالوا قريبين من طفولتهم أي في سن الطفولة وتم تحديد مدارس للنزول إليها إلا أن التلاميذ لم يتعاملوا بصورة جادة مع الأمر كما تقول رنا عبدالكريم وإن هناك من الأطفال من أخذها فرصة للتندر والضحك، وتضيف لجأنا إلى دراسة مرتجعة أي أنها من نوع الأبحاث التي يتاح فيها التذكر للمبحوثين وقد كان الأمر جيداً بحيث أضيف عنصر جديد للدراسة وهو قياس الأثر الزمني

- الدكتور عبدالسلام عشيش المدرس في كلية طب صنعاء يؤكد من خلال مئات الحالات التي عمل في معالجتها نفسياً أن الأثر لا يمكن أن يزول إلا بدعم معنوي كثير، من يتعرض للإساءة طفلاً ينمو ويتجاهل المضاعفات النفسية التي تواجهه وعندما يأتي للعلاج أحاول بناء الثقة معه وفي الوقت الذي يحس بالأمان يبدي بما يعرف لدى علم النفس بإخراج ما في نفسه من معاناة، وهذا البوح يفيده جداً ويساعده بالعلاج ويساعدنا في رفع روحه المعنوية وإخراجه من مرحلة الاضطرابات. لقد واجهت حالات لطالبات تعرضن لإساءات في مراحل مبكرة من حياتهن وكدن يستسلمن للآلام النفسية لولا التدخل الطبي الذي ساعدهن في تجاوز الأزمة والوصول إلى الشفاء وأهم مراحله استعادة الثقة بالنفس والانطلاق في الحياة من جديد والنظر بإيجابية..

تحذير من الصراخ

- بعض من استهدفوا بالدراسة ظل عالقاً في ذاكراتهم رفع الصوت والصراخ في وجوههم من قبل أشخاص قريبين منهم ولم تقدر السنوات على جعلهم في مأمن من هذه اللحظات، ويحذر أستاذ علم النفس من وسائل العقاب التي ينظر إليها باعتبارها عادية وبسيطة لا يمكن أن تؤثر في نفس الطفل وبالنظر إليها فهي مؤلمة وتعمر أكثر، وتقف حجر عثرة أمام المستقبل الواضح للطفل وتجعله يتصرف مع الأطفال الآخرين بذات الطريقة التي تم التعامل بها معه عندما كان طفلاً وهو ما يعرف برد الفعل المتأخر..

خطأ بسيط

وتأتي الإساءات الجسدية بالمرتبة الثانية وبنسبة ٤٢٪ من إجمالي المبحوثين الـ٣٠٠الذين أفادوا أنهم ليتذكرون أنواع العقاب المختلفة الذي تعرضوا له أثناء طفولتهم ووفقاً لأحد الباحثين فإن العقاب البدني كان بسبب خطأ بسيط ارتكبه الطفل لكنه لا يتذكره بينما يتذكر العقوبة فقط وهو ما يجب أن يتنبه إليه أولياء الأمور بحيث لا يقدموا على إنزال العقوبات على إطفالهم مهما كان الخطأ وأن عليهم أن يلجأوا إلى طرق آنية في التأثير وليست دائمة..

ووفقاً لخطه عمل أعدتها مؤسسة شوذب للطفولة فإن المدارس لا تزال تستخدم الضرب في صف التلاميذ وأنها ستقوم بمواجهة هذه الظاهرة حتى يتحقق تنفيذ قرار منع الضرب بالاستعانة بالصحفيين والتربويين لما يمثله العنف البدني من خطورة مستقبلية خاصة ما يتعلق بالجانب النفسي للطفل الذي يتعرض للعقوبة ولا يتخلص منها حين يتقدم بالعمر.

- ويذكر فريق البحث الذي أعلن النتائج التي توصل إليها الأسبوع المنصرم أن هناك تحفظاً على النوع الثالث من الإساءات وهو الإساءات الجنسية بحكم التقاليد والطابع الاجتماعي الذي يفضل التكتم على مثل هذه المواضيع وعدم مناقشتها ورغم ذلك فقد تجرأ ١٧٪ من المبحوثين ليجيبوا أنهم تعرضوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للإساءة الجنسية وأنها أخذت أشكالاً متنوعة، ومن شأن هذه الإساءات أن تدمر حياة الطفل وتجعله مهزوز الثقة بنفسه وبأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه كما يفيد أستاذ علم نفس الأطفال والمراهقين، مضيفاً:

مثل هذه الإساءات موجودة لكنها مخفية ويقوم من تعرض لها بالتستر عليها لأنها غير مقبولة اجتماعياً وتؤدي إلى ضغوط نفسية كبيرة وبدنية فيصبح الشخص مصاباً بأمراض مرتبطة بجهازه العصبي كالصداع وغيره لأنه تعرض إلى إساءة لم يقدر على التعبير عنها والتخلص منها وحتى هؤلاء لا نحصل على المعلومات منهم إلا عندما ننال ثقتهم العالية، وأدعو إلى زيادة الاهتمام بهذا النوع من الإساءة ودراسات أوسع حتى تأخذ الأسرة حذرها تجاه ضعاف الأنفس الذين يكونون جزءاً من الأهل وليسوا أغراباً.

- الغريب في الدراسة أن نسبة الإناث التي تعرضن للإساءة الجنسية كانت أقل من الذكور حيث بلغت الإساءة للإناث ٣٧٪ و٦٣٪ للذكور وهو ما يشير إلى الثقة التي تمنحها الأسر وعدم الحرص الزائد على الذكور وزيادة الحذر في ما يتعلق بالإناث..

ويطرح الباحثون البديل عن العنف المستخدم من قبل الأسرة على أن يكون الحوار هو الثقافة السائدة حتى مع الطفل الذي يعي كل ما يقال له وليس العنف طريقاً للتقويم بقدر ما هو سلوك يحمله الطفل طيلة عمره ويصعب تجاوزه..

وقد تكون فريق البحث من أروى عيسى وأسماء الظاهري وإيمان محمد رزق ورنا الجبزي وطلال الخولاني وعبدالسلام الزبيدي وعماد عبدالله ومحمد جابر ومروان بالبحيث ونسيم فروان ولديهم أمل كبير في أن يستفيد المجتمع مما قاموا به وأن تتغير مفاهيم التربية والسلوك وأن يروا جيلاً لا يحمل ذكريات مؤلمة طيلة حياته ويكون سببها أقرب الناس..